قرن الشيطان
إبراهيم إسماعيل الصعب

قَرْنُ الشَّيْطَانِ

.

خَرَجَ العَمُّ أَبُو عَلِيٍّ مِنْ مَنْزِلِهِ بَعْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ بِقَلِيلٍ، فَهُوَ قَدِ اعْتَادَ أَنْ يَجْلِسَ تَحْتَ شَجَرَةِ العِنَبِ الَّتِي اعْتَرَشَتْ أَمَامَ بَيْتِهِ، كَانَ رَجُلًا يَمْلَؤُهُ الوَقَارُ؛ فَقَدِ ابْيَضَّتْ لِحْيَتُهُ، وَأَصَابَ جَبْهَتَهُ مَا أَصَابَهَا مِنَ التَّجَاعِيدِ الَّتِي حَفَرَهَا الزَّمَانُ بِحَدِّ سَيْفِ الفَقْرِ وَالشَّقَاءِ، أَمَّا عَيْنَاهُ فَقَدِ اكْتَحَلَتْ سُمْرَةً مِنْ سُمْرَةِ الحِبْرِ الأَسْوَدِ الَّذِي يَعْشَقُهُ بِكُتُبِهِ الثَّقِيلَةِ وَالضَّخْمَةِ، تِلْكَ الَّتِي افْتُتِنَ بِهَا وَأَصْبَحَ هَاجِسُهُ القِرَاءَةَ بَيْنَ سُطُورِهَا.

كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ مُتَأَخِّرًا فَلَمْ يُرْزَقْ إِلَّا بِوَلَدٍ اسْمُهُ عَلِيٌّ، وَعَلِيٌّ هَذَا دَائِمًا مَا نَرَاهُ يَجْلِسُ بِحِجْرِهِ وَيَتَأَمَّلُ اللَّحْظَةَ الَّتِي يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى جَيْبِ سِرْوَالِهِ فَيُخْرِجُ قِطْعَةً مِنَ السَّكَاكِرِ الَّتِي لَا يَخْلُو جَيْبُهُ مِنْهَا أَبَدًا. وَبَعْدَ أَنْ يَقْرَأَ عِدَّةَ صَفَحَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ المُفَضَّلِ الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنِ التَّارِيخِ وَالأَدْيَانِ، يَخْرُجُ إِلَى جَنْبِ دُكَّانِ جَارِهِ مُصْطَفَى وَيَجْلِسُ عَلَى المِصْطَبَةِ الَّتِي ضُرِبَتْ خَصِيصًا لَهُ، وَكَأَنَّهُ النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيُّ، فَيَسْتَقِي جَارُهُ مُصْطَفَى مِنْ عِلْمِهِ الوَفِيضِ. أَمَّا ابْنُهُ عَلِيٌّ فَيَلْحَقُ بِهِ وَيَجْلِسُ بِحِجْرِهِ وَيَمَصُّ قِطَعَ الحَلْوَى وَاحِدَةً وَرَاءَ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَنْضَمُّ إِلَيْهِ كُلُّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ أَمْرٍ عِلْمِيٍّ، فَكَانَ يَلْجَأُ إِلَيْهِ الطَّلَبَةُ مِنْ مُخْتَلِفِ المَرَاحِلِ حَتَّى الجَامِعِيُّونَ مِنْهُمْ، وَلَوْ قُلْنَا إِنَّهُ مُلِمٌّ بِالأَدَبِ وَالتَّارِيخِ وَالأُمُورِ الدِّينِيَّةِ لَمَا أَطْنَبْنَا بِالقَوْلِ. وَرَغْمَ هَذِهِ الصِّفَاتِ فَإِنَّ نَفْسَهُ طَيِّبَةٌ تُحِبُّ النَّاسَ وَمُسَاعَدَتَهُمْ، وَتُعِينُهُمْ عَلَى العِلْمِ.

كَانَ العَمُّ جَالِسًا عَلَى مِصْطَبَتِهِ يُحَاوِرُ الطَّالِبَ الجَامِعِيَّ "قُصَي" فِي التَّارِيخِ العُثْمَانِيِّ وَقَضِيَّةِ سُكَّانِ الجِبَالِ الغَرْبِيَّةِ حَيْثُ طَرَحَهَا قُصَيٌّ مُدَافِعًا عَنْهُمْ، فَهُمْ هَرَبُوا إِلَى الجِبَالِ خَوْفًا مِنَ العُثْمَانِيِّينَ، لَكِنَّ العَمَّ كَانَ لَهُ رَأْيٌ آخَرُ وَقَالَ فِيهِمْ: "هُمْ أَرْذَلُ خَلْقِ اللهِ"، وَبَدَأَ يَضْحَكُ مِنْ هَذِهِ الكُتُبِ وَعَبَّرَ عَنْهَا بِأَنَّهَا "مُسُوخُ الكُتُبِ". انْقَطَعَ العَمُّ عَنِ

الضَّحِكِ وَبَدَا الغَيْظُ عَلَى وَجْهِهِ، مَا الأَمْرُ؟! عَلَى مَا يَبْدُو أَنَّهُ أَمْرٌ جَلَلٌ، فَالعَمُّ لَا يَغْضَبُ.

لَيْسَ مِنْ بَعِيدٍ ظَهَرَتِ امْرَأَةٌ تَرْكَبُ عَلَى حِمَارٍ وَمَعَهَا رَجُلَانِ؛ أَحَدُهُمَا يُمْسِكُ بِاللِّجَامِ وَالثَّانِي خَلْفَهُ، وَضَعَ العَمُّ يَدَهُ عَلَى عَيْنَيْ وَلَدِهِ حَتَّى لَا يَرَاهُمْ، وَفَكَّرَ بِنَفْسِهِ كَيْفَ سَيَقْتُلُ الرَّجُلَ الَّذِي يَقُودُ الحِمَارَ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ مَنْ هُمْ وَمَا الَّذِي يَصْنَعُونَهُ، فَالمَرْأَةُ تُبَاعُ تَحْتَ سِتَارِ الزَّوَاجِ، وَالرَّجُلَانِ إِنَّمَا هُمَا الشَّاهِدَانِ. كَانَتِ المَرْأَةُ تُدْعَى "سِيرِينَ"، أَمَّا الرَّجُلَانِ فَالأَوَّلُ يُدْعَى "نصِيرٌ" وَالثَّانِي "نَمِيرٌ". أَحَسَّ مُصْطَفَى بِالأَمْرِ الَّذِي يَنْوِي عَلَيْهِ العَمُّ فَأَدْخَلَهُ الدُّكَّانَ وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ البَابَ وَقَالَ لَهُ: "لَا نُرِيدُ جَرِيمَةً تُحَوِّلُ حَيَاتَكَ إِلَى الأَبَدِ، فَأَنَا أَعْلَمُ مَنْ هُمْ مِثْلَكَ تَمَاماً".

مَرَّ الثَّلَاثَةُ مِنْ أَمَامِ الدُّكَّانِ وَالعَمُّ يَرْمُقُهُمْ بِنَظَرَاتٍ يَمْلَؤُهَا الكُرْهُ وَالحِقْدُ، وَلَكِنَّ نَظَرَاتِهِ لَمْ تَمْنَعْهُمْ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى الزَّبُونِ فِي القَرْيَةِ؛ فَهُوَ سَخِيٌّ وَسَوْفَ يَدْفَعُ الكَثِيرَ مِنَ المَالِ لِقَاءَ عَقْدِ زَوَاجٍ لِأُسْبُوعٍ وَاحِدٍ، وَبِالفِعْلِ ذَهَبَ الثَّلَاثَةُ إِلَى أَقْذَرِ رَجُلٍ فِي القَرْيَةِ؛ "حَمْدَانَ" الَّذِي كَانَ يُلَقَّبُ بـ"الوَحْشِ" لِضَخَامَةِ جَسَدِهِ وَقِلَّةِ عَقْلِهِ. لَقَدْ تَمَّ عَقْدُ الزَّوَاجِ لِأُسْبُوعٍ وَاحِدٍ وَقَبَضَ الرَّجُلَانِ الثَّمَنَ، وَعِنْدَ عَوْدَتِهِمَا شَاهَدَهُمَا العَمُّ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى فِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ لِأَنَّ مُصْطَفَى كَانَ يَمْنَعُهُ، فَهُوَ كَانَ يُرِيدُ قَتْلَ صَاحِبِ الحِمَارِ.

وَعِنْدَمَا أَوْشَكَ الرَّجُلَانِ أَنْ يَغْرُبَا عَنْ نَاظِرَيْهِ انْفَجَرَ غَيْظُ قَلْبِهِ وَتَجَلَّطَتْ عُرُوقُهُ وَسَقَطَ عَلَى أَرْضِ الدُّكَّانِ، لَكِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: "لَيْتَنِي قَتَلْتُهُ يَا مُصْطَفَى، فَهُمْ سَوْفَ يُفْسِدُونَ أَرْضَنَا". حَمَلَ مُصْطَفَى العَمَّ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى بَيْتِهِ فَتَحَلَّقَتْ زَوْجَتُهُ وَوَلَدُهُ فَوْقَ رَأْسِهِ، فَهُوَ قَدْ شُلَّ نِصْفُهُ، لَكِنَّ الغَيْظَ بِدَاخِلِهِ لَمْ يَهْدَأْ وَأَخَذَ يَقْضِمُ مِنْ قَلْبِهِ وَيُفَتِّتُ الرُّوحَ الَّتِي تَسْكُنُهُ. مَرَّتْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ عَلَى الحَادِثَةِ وَمُصْطَفَى يَعُودُهُ وَيُقَدِّمُ لَهُ

مَا يَحْتَاجُهُ، لَكِنَّ صِحَّةَ العَمِّ فِي تَرَاجُعٍ مُسْتَمِرٍّ، أَيْقَنَ العَمُّ أَنَّهُ يُصَارِعُ المَوْتَ، وَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ قَلَائِلُ وَيَرْحَلُ عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا، فَطَلَبَ مِنْ جَارِهِ أَنْ يَرْعَى وَلَدَهُ وَأَوْصَاهُ بِالكُتُبِ الَّتِي تُوَضِّحُ حَقِيقَةَ الأَمْرِ.

مَرَّ أُسْبُوعٌ عَلَى قُدُومِ الرَّجُلَيْنِ فَعَادَا إِلَى القَرْيَةِ مِنْ جَدِيدٍ حَتَّى يَأْخُذَا "سِيرِينَ" مَعَهُمَا، فَالعَقْدُ قَدِ انْتَهَى أَجَلُهُ، وَعِنْدَمَا مَرَّا مِنْ أَمَامِ دُكَّانِ مُصْطَفَى سَمِعَ العَمُّ الأَجْرَاسَ الَّتِي تَحْمِلُ صَوْتَ القَذَارَةِ وَضَحِكَ الشَّيَاطِينِ عَلَى جُثَثِ الخَنَازِيرِ، فَأَيْقَظَتْهُ مِنَ السَّكِينَةِ الَّتِي كَانَ يَعِيشُهَا بَيْنَ سُطُورِ كُتُبِهِ، حَاوَلَ النُّهُوضَ لَكِنَّهُ مَشْلُولُ النِّصْفِ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى النُّهُوضِ حَتَّى، فَاحْمَرَّ وَجْهُهُ وَاشْتَدَّتْ أَوْدَاجُهُ وَاعْتَصَرَهُ الأَلَمُ الَّذِي جَفَّفَ الدِّمَاءَ بِعُرُوقِهِ فَغَابَ بِنَوْمٍ أَبَدِيٍّ، سَوْفَ تَنَامُ القَرْيَةُ بَلِ البَلَدُ بِأَسْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ.

صَرَخَ عَلِيٌّ بِصَوْتٍ مُجْهِشٍ: "أَبِي!"، لَكِنَّ الوَالِدَ لَمْ يُجِبْ، حَضَرَ مُصْطَفَى وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى صُنْعِ أَيِّ شَيْءٍ، فَالأَمْرُ قَدْ قُضِيَ، وَتُوُفِّيَ العَمُّ تَارِكاً وَرَاءَهُ جُرْحاً لَا يَنْدَمِلُ، فَعِلْمُهُ كَانَ مَلْجَأً الكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنَّ المَوْتَ اخْتَطَفَهُ مِنْ بَيْنِ أَحْضَانِ الحَيَاةِ. أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَدَعَا اللهَ لَهُ بِالرَّحْمَةِ، فَلِمِثْلِهِ يَكُونُ الدُّعَاءُ. "فِدَاكَ النَّفْسُ أَيُّهَا العَمُّ، لَقَدْ كُنْتَ نِعْمَ الأَخُ وَالصَّدِيقُ، نِعْمَ الخَلِيلُ وَالرَّفِيقُ"؛ قَالَهَا مُصْطَفَى وَمَسَحَ الدَّمْعَ عَنْ لِحْيَتِهِ الَّتِي تَبَلَّلَتْ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الجَامِعِ بِخُطَوَاتٍ مُثْقَلَةٍ وَكَأَنَّ رِجْلَيْهِ قَدْ أُثْقِلَتَا بِجَبَلٍ، وَلَكِنْ لَا مَحَالَةَ مِنَ الأَمْرِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُخْبِرَ أَهْلَ القَرْيَةِ بِمَوْتِ العَمِّ.

نَزَلَ خَبَرُ الوَفَاةِ كَالصَّاعِقَةِ عَلَى رُؤُوسِ أَهْلِ القَرْيَةِ، فَالعَمُّ مَحْبُوبٌ بَيْنَهُمْ وَالكُلُّ يُحِبُّهُ وَلَا يُوجَدُ مَنْ يُبْغِضُهُ، فَكَأَنَّ القَرْيَةَ بِمَوْتِهِ انْقَعَرَ دَاخِلُهَا وَأَصْبَحَتْ خَاوِيَةً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَعَمَلُهُ لَا يُعَوَّضُ وَإِشْرَاقَةُ وَجْهِهِ لَا تُنْسَى. حَضَرَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الشَّبَابِ حَتَّى تَقُومَ بِالوَاجِبِ وَتَحْفِرَ قَبْراً لِلْعَمِّ، قَبْرٌ سَيَضُمُّهُ بَيْنَ أَضْلُعِهِ وَسَوْفَ يَضُمُّ القَرْيَةَ مِنْ

بَعْدِهِ ضَمَّةً تَخْتَلِطُ أَضْلُعُهَا؛ لِأَنَّ لِسَانَ الحَقِّ قَدْ صَمَتَ وَعَيْنَ العِلْمِ قَدْ خَبَتْ. خَرَجَتِ الجِنَازَةُ مِنْ بَيْتِ العَمِّ وَحُمِلَتْ عَلَى العُيُونِ البَاكِيَةِ قَبْلَ الحَمْلِ عَلَى الأَكْتَافِ، سَارَتْ عَلَى طَرِيقٍ مِنَ القُلُوبِ قَبْلَ السَّيْرِ عَلَى الدُّرُوبِ إِلَى أَنْ وَصَلَتِ الجَامِعَ الكَبِيرَ، وَلَمْ يَبْقَ رَجُلٌ وَلَا طِفْلٌ إِلَّا وَحَضَرَ صَلَاةَ الجِنَازَةِ، ثُمَّ أُخِذَ إِلَى القَبْرِ وَوُضِعَ بِهِ لِتَنْتَهِيَ قِصَّةٌ وَتَبْدَأَ قِصَّةٌ أُخْرَى.

اكْتَسَتِ القَرْيَةُ السَّوَادَ حِدَاداً عَلَيْهِ، وَأَخَذَ مُصْطَفَى عَهْداً عَلَى نَفْسِهِ بِقَتْلِ صَاحِبِ الحِمَارِ. أَمَّا "سِيرِينُ" فَقَدْ طَلَّقَهَا "الوَحْشُ" وَعَادَتْ إِلَى الجِبَالِ الغَرْبِيَّةِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أَنَّهَا قَدْ حَمَلَتْ مِنْ زَوْجِهَا "الوَحْشِ" حَتَّى يَتَّضِحَ لَهَا الأَمْرُ بَعْدَ أَشْهُرٍ عِدَّةٍ. عَلِمَ "نَصِيرٌ" بِالأَمْرِ فَحَاوَلَ إِرْغَامَهَا بِقَتْلِ الطِّفْلِ الَّذِي تَحْمِلُهُ بِأَحْشَائِهَا لَكِنَّهَا لَمْ تَقْبَلْ، وَذَهَبَتْ إِلَى "كَبِيرِ الجِبَالِ الغَرْبِيَّةِ" الَّذِي كَانَ يُقْنِعُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ بِهَذَا الفِعْلِ المُشِينِ وَيَقُولُ لَهُمْ: "إِنَّ صَحْنَ العَسَلِ مَهْمَا حَطَّ عَلَيْهِ مِنَ الذُّبَابِ يَبْقَى عَسَلاً". تَقَبَّلَ الرَّجُلُ هَذَا الأَمْرَ وَوَجَدَ بِهِ خَلَاصاً لِحَالِهِمْ، فَهُوَ ابْنُ "الوَحْشِ" الَّذِي يَحْكُمُ القَرْيَةَ وَسَوْفَ يُدْخِلُهُمْ إِلَيْهَا، فَمَنَعَ الرَّجُلُ "نَصِيراً" عَنْ "سِيرِينَ" وَقَرَّرَ أَنْ يَحْمِيَهَا إِلَى أَنْ تَضَعَ طِفْلَهَا وَتَذْهَبَ بِهِ إِلَى وَالِدِهِ وَتُحَاوِلَ إِقْنَاعَهُ بِالزَّوَاجِ مِنْهَا مَرَّةً أُخْرَى.

مَرَّتِ الشُّهُورُ مُسْرِعَةً وَوَضَعَتْ "سِيرِينُ" طِفْلَهَا وَأَسْمَتْهُ "جَعْفَرَ"، حَمَلَتْهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا وَتَوَجَّهَتْ مَعَ "نَصِيرٍ" إِلَى القَرْيَةِ وَذَهَبَتْ إِلَى "حَمْدَانَ الوَحْشِ" وَأَخْبَرَتْهُ أَنَّ هَذَا الطِّفْلَ هُوَ ابْنُهُ، لَكِنَّ "حَمْدَانَ" انْفَجَرَ بِالضَّحِكِ وَلَمْ يَتَقَبَّلِ الفِكْرَةَ أَبَداً وَطَرَدَهُمَا مِنَ القَرْيَةِ وَتَوَعَّدَهُمَا بِالقَتْلِ إِنْ عَادَا. أَدَارَتْ "سِيرِينُ" ظَهْرَهَا وَحَمَلَتِ الطِّفْلَ مُبْتَعِدَةً، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ قَدْ وَضَعَتِ الِانْتِقَامَ بَيْنَ عَيْنَيْهَا. وَفِي طَرِيقِ العَوْدَةِ حَدَثَ مَا لَمْ تَكُنْ تَتَوَقَّعُهُ سِيرِينُ؛ فَقَدْ لَاحَظَ مُصْطَفَى

"نَصِيراً" صَاحِبَ الحِمَارِ، فَعَلِمَ أَنَّهَا فُرْصَةٌ لَنْ تَتَكَرَّرَ، وَأَخْرَجَ مِنْ دُكَّانِهِ فَأْساً كَانَ قَدْ حَضَّرَهَا لِلوَفَاءِ بِعَهْدِهِ، فَاسْتَحْوَذَ الفُرْصَةَ وَضَرَبَ نَصِيراً عَلَى رَأْسِهِ فَأَرْدَاهُ قَتِيلاً.

أَمَّا "سِيرِينُ" فَقَدْ هَرَبَتْ مَعَ طِفْلِهَا وَلَمْ يَقْتُلْهَا مُصْطَفَى، وَتَوَعَّدَهَا بِمَصِيرِ نَصِيرٍ إِنْ هِيَ عَادَتْ. رَجَعَتْ "سِيرِينُ" إِلَى كَبِيرِ قَوْمِهَا وَأَخْبَرَتْهُ بِالأَمْرِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَأَثَّرْ؛ فَنَصِيرٌ مِثْلُهُ مِثْلُ الكَلْبِ إِذَا نَفَقَ يُوجَدُ أَلْفُ كَلْبٍ آخَرَ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ قَطَعَ عَهْداً لِسِيرِينَ بِأَنَّهُ سَوْفَ يُسَيْطِرُ عَلَى كَامِلِ هَذِهِ البِلَادِ. سَخِرَتْ مِنْ قَوْلِهِ وَضَحِكَتْ: "كَيْفَ سَتُسَيْطِرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ مَنْ نَحْنُ وَمَا نَكِيدُ لَهُمْ وَلِدِينِهِمْ؟ نُحِلُّ مَا يُحَرِّمُونَ وَنَسُبُّ أَعْلَامَهُمْ، بَلْ نَحْنُ أَثَرٌ لِمُلْكٍ قَدِيمٍ لَمْ يَعُدْ لَهُ وُجُودٌ، وَإِنَّمَا امْتَهَنَّا الرَّذِيلَةَ حَتَّى نَمْلأَ بُطُونَنَا فَأَصْبَحْنَا كَالكِلَابِ التَّائِهَةِ".
فَقَالَ لَهَا: "بِطِفْلِكَ هَذَا سَوْفَ نَحْكُمُهُمْ، مِثْلَمَا جَمَعَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؛ سَوْفَ نَجْمَعُ بِالدِّينِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَنُغْرِيهِمْ بِالنِّسَاءِ"«فَيَقَعُونَ، وَأَنَا أَعْلَمُ مَدَى الحُبِّ الَّذِي يَكُنُّونَهُ لِرَسُولِهِمْ وَنَحْنُ نَكْرَهُ صَحَابَتَهُ، أَنْتِ لَا تَعْلَمِينَ حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ مَنْ نَحْنُ وَإِنْ كَانَ لَدَيْكِ بَعْضُ العِلْمِ عَنْ مُلْكِنَا الزَّائِلِ»، صُدِمَتْ سِيرِينُ وَقَالَتْ: «مَنْ نَحْنُ؟!» فَقَالَ: «نَحْنُ الَّذِينَ كُنَّا نَعْبُدُ النَّارَ وَنُقَدِّسُهَا، وَكُنَّا نَحْكُمُ نِصْفَ الأَرْضِ، فَجَاءَ العَرَبُ وَأَزَالُوا مُلْكَنَا بَيْنَ لَيْلَةٍ وَضُحَاهَا، فَكَيْفَ لَنَا أَنْ نُحِبَّهُمْ؟».

فَقَالَتْ: «أَلَسْنَا نُؤْمِنُ بِرَسُولِهِمْ وَنُحِبُّ بَعْضَ صَحَابَتِهِ بَلْ وَنُقَدِّسُهُمْ؟»، قَالَ لَهَا: «لَا، إِنَّمَا الحَقِيقَةُ أَنَّ المُسْلِمِينَ عِنْدَمَا فَتَحُوا بِلَادَنَا أَخَذُوا بَنَاتِ مَلِكِنَا سَبِيَّاتٍ لَدَيْهِمْ، وَقَدْ تَزَوَّجَ حَفِيدُ رَسُولِهِمْ مِنْ إِحْدَاهُنَّ وَنَحْنُ نَتَعَصَّبُ لَهَا وَلِنَسْلِهَا». قَالَتْ سِيرِينُ: «الآنَ عَلِمْتُ كَيْفَ نُحِبُّ وَلَداً، وَالثَّانِي لَا نَتَعَصَّبُ لَهُ، وَأَمَّا الآخَرُونَ فَنَحْنُ لَا نَأْتِي بِذِكْرِهِمْ». تَبَسَّمَ الرَّجُلُ ابْتِسَامَةً شَيْطَانِيَّةً وَقَالَ لَهَا: «أَنْتِ ذَكِيَّةٌ جِدّاً، إِيَّاكِ أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ بِهَذَا الأَمْرِ، وَلَدَيْنَا شَخْصٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَنَا

وَبَيْنَهُمْ وَهُوَ وَالِدُ زَوْجِ جَدَّتِنَا، وَإِنْ كَانُوا يُحِبُّونَهُ أَكْثَرَ مِنَّا، وَلَا أُخْفِيكِ هُوَ بَرِيءٌ مِنَّا وَلَكِنْ نَحْنُ نَتَعَصَّبُ لَهُ وَسَوْفَ نَسْتَغِلُّ هَذِهِ النُّقْطَةَ وَنُحَاوِلُ أَنْ يَعْتَرِفُوا بِنَا كَأَنَّنَا فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِهِمْ».

قَالَتْ سِيرِينُ: «هُمْ لَيْسُوا بِأَغْبِيَاءَ، لَنْ يَعْتَرِفُوا بِنَا وَأَسْلَافُنَا قَدْ قَتَلُوا أَعْلَامَهُمْ وَيُكَفِّرُونَهُمْ». سَخِرَ الرَّجُلُ مِنْهَا وَقَالَ لَهَا: «أَجَلْ هُمْ أَذْكِيَاءُ لَكِنَّ قُلُوبَهُمْ نَظِيفَةٌ بَرِيئَةٌ وَسَوْفَ يَقْبَلُونَ بِنَا، وَنَحْنُ لَنَا قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ»، ثُمَّ ضَحِكَ بِصَوْتٍ عَالٍ كَأَنَّهُ عَزِيفُ الجَانِّ، وَضَحِكَتْ مَعَهُ بِصَوْتٍ أَشْبَهَ مَا يَكُونُ بِصَوْتِ الخَنَازِيرِ عَلَى الجِيَفِ النَّتِنَةِ، ثُمَّ حَمَلَتْ طِفْلَهَا وَخَرَجَتْ.

أَمَّا فِي الجَانِبِ المُقَابِلِ، كَانَ عَلِيٌّ قَدْ فَقَدَ وَالِدَهُ وَلَمْ يُورِّثْ لَهُ إِلَّا مَجْمُوعَةً مِنَ الكُتُبِ الصَّفْرَاءِ الَّتِي لَا يَعْلَمُ قِيمَتَهَا، وَلَكِنَّ مُصْطَفَى قَدْ تَكَفَّلَ بِهِ وَاعْتَبَرَهُ أَحَدَ أَوْلَادِهِ، فَكَانَ يَشْتَرِي لَهُ كُلَّ شَيْءٍ يُرِيدُهُ وَيُعَوِّضُهُ حَنَانَ وَالِدِهِ الَّذِي فَقَدَهُ. كَانَ عَلِيٌّ مُتَّقِدَ الذَّكَاءِ مِثْلَ وَالِدِهِ، مِمَّا جَعَلَ مُصْطَفَى يَقْطَعُ عَهْداً عَلَى نَفْسِهِ بِتَقْدِيمِ كُلِّ مَا يَمْلِكُ حَتَّى يَجْعَلَ مِنْهُ رَجُلاً كَوَالِدِهِ. مَضَتِ الأَيَّامُ مُسْرِعَةً وَكَبُرَ عَلِيٌّ بِكَنَفِ مُصْطَفَى الَّذِي أَدْخَلَهُ المَدْرَسَةَ، وَكَانَ مُتَفَوِّقاً عَلَى جَمِيعِ أَقْرَانِهِ، وَكَانَ مَحَطَّ إِعْجَابِ المُدَرِّسِينَ بِهِ، فَقَدْ كَانَ عُمْرُهُ العَقْلِيُّ أَكْبَرَ مِنْ عُمْرِهِ الجَسَدِيِّ.

كَانَ لَا يُحِبُّ اللَّعِبَ كَثِيراً، بَلْ يَحْمِلُ بَعْضَ الكُتُبِ وَيَقْرَأُ مِنْهَا، وَكَانَ لِأُمِّهِ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي تَعْلِيمِهِ، فَهِيَ قَدْ بَدَأَتْ تَعْلِيمَهُ القُرْآنَ وَالحَدِيثَ بِسِنٍّ مُبَكِّرَةٍ مِمَّا جَعَلَهُ مِنَ الحَافِظِينَ لِلْكَثِيرِ مِنَ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ.
مَضَتْ عَشْرُ سَنَوَاتٍ عَلَى حَادِثَةِ مَوْتِ وَالِدِهِ وَمُصْطَفَى لَا يَزَالُ عَلَى عَهْدِهِ الَّذِي قَطَعَهُ، لَكِنَّ الدُّنْيَا لَا تَثْبُتُ عَلَى حَالٍ وَاحِدٍ؛ أَجَلْ إِنَّ المَصَاعِبَ وَالمَآسِيَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَنْ تُشَكِّلَ شَخْصِيَّةَ الرَّجُلِ الَّذِي مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَحْمِلَ لِوَاءَ أُمَّةٍ. إِنَّهُ المَوْتُ ذَاتُهُ الَّذِي غَيَّبَ وَالِدَهُ

سَوْفَ يُغَيِّبُ مُصْطَفَى هُوَ الآخَرُ، كَانَتْ مُصِيبَةً وَصَدْمَةً مِنَ العِيَارِ الثَّقِيلِ عَلَى قَلْبِ عَلِيٍّ، فَلَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ مِنَ القُوَّةِ الدَّافِعَةِ أَيُّ شَيْءٍ.

مُصْطَفَى الَّذِي كَانَ يُوَاسِيهِ وَيُمَازِحُهُ وَيَمْسَحُ عَلَى رَأْسِهِ غَيَّبَهُ المَوْتُ؛ أَصْبَحَ عَلِيٌّ بِمَعْزِلٍ عَنِ الوَاقِعِ، مُتَضَرِّجاً بِأَوْجَاعِهِ وَأَحْزَانِهِ، لَا يَمْلِكُ مِنَ الأَمَلِ سِوَى أَوْرَاقِ الخَرِيفِ الَّتِي تَرَكَهَا وَالِدُهُ لِتُبَشِّرَ بِالرَّبِيعِ مِنْ بَعْدِ شِتَاءٍ أَبْيَضَ، هَذَا الرَّبِيعُ سَوْفَ يَكُونُ أَحْمَراً كَحُمْرَةِ الدِّمَاءِ، وَدَافِئاً كَدِفْءِ أَجْسَادِ الشُّهَدَاءِ. وَأَصْبَحَ بِبُعْدِهِ عَنْ مُجْتَمَعِهِ مُنْكَبّاً عَلَى كُتُبِ وَالِدِهِ يَلْتَهِمُهَا الْتِهَاماً وَيَنْهَلُ مِنْ عِلْمِهَا الوَفِيضِ، وَرَغْمَ كَثَافَةِ تِلْكَ الكُتُبِ لَمْ يُهْمِلْ دِرَاسَتَهُ، فَالكُتُبُ المَدْرَسِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ مُجَرَّدُ أُضْحُوكَةٍ لِعَقْلِهِ الوَاسِعِ.

إِنَّ الأَلَمَ الَّذِي يَعِيشُهُ الفَرْدُ كَانَ وَلَا يَزَالُ يفتقُ بَرَاعِمَ الإِبْدَاعِ بِدَاخِلِ كُلِّ قَلْبٍ مُبْدِعٍ؛ قَلَمُهُ بَدَأَ يَجْرِي وَيَرْسِمُ الحُرُوفَ وَيَضَعُ النِّقَاطَ عَلَيْهَا، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ أَيُّ أَحَدٍ يَقْرَأُ لَهُ، فَالمُجْتَمَعُ كَانَ غَارِقاً وَرَاءَ الدُّنْيَا مُتَنَاسِياً العِلْمَ، لَا يُقَدِّرُ الغَرِيبَ عَنْهُ، وَفِي الوَاقِعِ كَانَ عَلِيٌّ غَرِيباً عَنْهُ. يَعْلَمُ وَيَتَعَلَّمُ عَنِ الذِّئَابِ الَّتِي تَكْبُرُ وَتُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهُمْ، بَلِ الوَاقِعُ إِنَّ الذِّئَابَ أَطْهَرُ مِنْهُمْ، فَجَعْفَرٌ كَانَ يَكْبُرُ وَيَتَعَلَّمُ الخُبْثَ وَالدِّيَاثَةَ مِنَ الزَّعِيمِ لَدَيْهِمْ. لَقَدْ وَرِثَ جَعْفَرٌ مِنْ وَالِدِهِ ضَخَامَةَ الجَسَدِ وَالقُوَّةَ، وَبَدَأَ يَتَسَلَّمُ مَقَالِيدَ الزَّعَامَةِ بِمُجْتَمَعِهِ القَذِرِ، وَبَدَأَتْ رِحْلَاتُ الدِّيَاثَةِ وَبَيْعِ النِّسَاءِ مُنَظَّمَةً وَأَكْثَرَ إِغْرَاءً مِنْ ذِي قَبْلُ.

وَبَدَلَ التَّوَجُّهِ إِلَى القُرَى الصَّغِيرَةِ الَّتِي لَيْسَ بِهَا مِنَ الوَجَبَاتِ الدَّسِمَةِ إِلَّا القَلِيلُ، أَصْبَحَ التَّوَجُّهُ إِلَى المُدُنِ الكَبِيرَةِ، فَأَغْلَبُ الزُّعَمَاءِ وَالسَّاسَةِ يَنْطَلِقُونَ مِنْهَا. كَانَ لَدَى جَعْفَرٍ صَبِيَّةٌ جَعَلَ مِنْهَا رَأْسَ صَيْدِهِ الكَبِيرِ فَهِيَ حَسْنَاءُ جِدّاً، تَمْلِكُ شَعْراً مُنْسَرِحاً وَجَسَداً مَمْشُوقاً وَلَمْ تَكُنْ لِتَرْكَبَ الحِمَارَ أَبَداً فَلَهَا فَرَسُهَا الخَاصُّ. اعْتَمَدَ جَعْفَرٌ عَلَى رَجُلٍ جَعَلَ مُهِمَّتَهُ التَّجَوُّلَ فِي المَدِينَةِ الكَبِيرَةِ وَالعُثُورَ عَلَى رَأْسِهَا،

وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ اسْمُهُ صَقْرٌ، وَصَقْرٌ هَذَا كَانَ دَاهِيَةً بِمَعْرِفَةِ رِجَالِ المَدِينَةِ وَكَيْفِيَّةِ صَيْدِهِمْ إِلَى أَنْ عَثَرَ عَلَى رَئِيسِ المَدِينَةِ الَّذِي كَانَ كَثِيرَ المَالِ وَعُرِفَ عَنْهُ حُبُّهُ لِلنِّسَاءِ، فَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ هُوَ مِفْتَاحَ اللُّعْبَةِ وَالهَدَفَ المُنْتَظَرَ.

فَأَرْسَلَ جَعْفَرٌ الصَّبِيَّةَ بِرِفْقَةِ صَقْرٍ إِلَى رَئِيسِ المَدِينَةِ وَأَظْهَرَهَا لَهُ وَقَدْ لَبِسَتْ وَتَجَمَّلَتْ مِمَّا جَعَلَ لُعَابَ رَئِيسِ المَدِينَةِ يَسِيلُ فَطَلَبَ الصَّبِيَّةَ، وَالغَرِيبُ هَذِهِ المَرَّةَ أَنَّ الزَّوَاجَ كَانَ دَائِماً فَجَعْفَرٌ قَدْ خَطَّطَ طَوِيلاً لِهَذَا اليَوْمِ، فَأُسْبُوعٌ وَاحِدٌ أَوْ شَهْرٌ بَلْ سَنَةٌ لَا تَكْفِي لِتَنْفِيذِ المُخَطَّطِ. كَانَتِ الصَّبِيَّةُ تُدْعَى مَنَارَ، وَمَنَارُ هَذِهِ أَتَمَّتِ الخُطَّةَ عَلَى أَتَمِّ وَجْهٍ وَتَزَوَّجَ رَئِيسُ المَدِينَةِ مِنْهَا، وَبَدَأَتْ تَفْتِنُ زَوْجَهَا بِجَمَالِهَا وَحَرَكَاتِهَا، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ إِدْخَالِ جَعْفَرٍ وَصَقْرٍ إِلَى قَصْرِ الرِّئَاسَةِ وَخَدَعَتْ زَوْجَهَا وَعَيَّنَتْ جَعْفَرًا زَعِيمًا عَلَى الحَرَسِ وَصَقْرًا مُسَاعِدًا لَهُ.

وَمَا إِنْ أَصْبَحَ جَعْفَرٌ يَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ النُّفُوذِ حَتَّى أَدْخَلَ جَمِيعَ سُكَّانِ الجِبَالِ الغَرْبِيَّةِ إِلَى المَدِينَةِ وَأَمَرَ الجَمِيعَ بِالتَّسَتُّرِ وَالإِقْلَاعِ عَنْ عَمَلِهِمْ فَهُمْ لَا يَزَالُونَ ضُعَفَاءَ وَقِلَّةً، وَأَمَرَهُمْ بِعَدَمِ الإِفْصَاحِ عَنْ دِينِهِمْ وَالتَّسَتُّرِ عَنْهُ. لَمْ تَمْضِ سُنُونَ كَثِيرَةٌ حَتَّى أَصْبَحَ رَئِيسُ المَدِينَةِ أُلْعُوبَةً بِيَدِ زَوْجَتِهِ الَّتِي عَمِلَتْ بِأَمْرِ جَعْفَرٍ، وَبَدَأَ يُوَظِّفُ جَمِيعَ أَفْرَادِ زُمْرَتِهِ بِجَمِيعِ مَرَافِقِ المَدِينَةِ، وَأَصْبَحَتْ جَمَاعَتُهُ الآمِرَةَ وَالنَّاهِيَةَ، فَقَدِ امْتَلَكُوا الأَمْوَالَ بِأَعْمَالِ السَّلْبِ وَالنَّهْبِ وَلَا أَحَدَ يَرْدَعُهُمْ فَهُمْ مِنْ طَرَفِ جَعْفَرٍ. شَارَفَتِ الخُطَّةُ عَلَى الانْتِهَاءِ وَلَكِنَّ حَاجِزًا يَحُولُ بَيْنَ جَعْفَرٍ وَامْتِلَاكِهِ لِلسُّلْطَةِ أَلَا وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي يَدِينُ بِهِ، فَالقَانُونُ لَا يَسْمَحُ لِغَيْرِ المُسْلِمِ بِامْتِلَاكِ السُّلْطَةِ مِمَّا أَخَّرَ الخُطَّةَ قَلِيلاً.

فَبَدَأَ جَعْفَرٌ يُظْهِرُ دِينَهُ المَكْذُوبَ إِلَى أَنْ وَقَعَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى وَاعْتَرَفَ المَجْمَعُ الدِّينِيُّ بِهِمْ كَأَحَدِ فُرُوعِ الإِسْلَامِ، وَبِهَذَا نَجَحَتِ الخُطَّةُ كَامِلَةً. وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى قَامَ جَعْفَرٌ بِحِيَاكَةِ خُطَّةٍ جَدِيدَةٍ قَتَلَ بِهَا رَئِيسَ المَدِينَةِ وَتَوَلَّى الرِّئَاسَةَ، وَبِهَذَا اتَّجَهَتِ المَدِينَةُ إِلَى الهَاوِيَةِ، أَوْ لِنَقُلْ إِلَى شَفِيرِ الهَاوِيَةِ وَلَمْ تَسْقُطِ السُّقُوطَ الكُلِّيَّ لِأَنَّهَا كَانَتْ مَرْبُوطَةً بِحَبْلٍ مَتِينٍ رَغْمَ الحِمْلِ الثَّقِيلِ الَّذِي يَحْمِلُهُ وَهُوَ عَلِيٌّ، الَّذِي كَانَ عَالِماً بِكُلِّ مَا يَرْمِي إِلَيْهِ جَعْفَرٌ وَأَتْبَاعُهُ لَكِنَّهُ صَمَتَ وَتَرَيَّثَ فَهُوَ ضَعِيفٌ لَا يَمْلِكُ أَحَداً يُسَاعِدُهُ مِمَّا كَمَّمَ فَمَهُ وَجَعَلَهُ فِي حَالَةِ تَرَقُّبٍ لِيَسْتَحْوِذَ عَلَى الفُرْصَةِ لِيُعْلِمَ النَّاسَ بِحَقِيقَةِ جَعْفَرٍ.

لَقَدْ مَارَسَ جَعْفَرٌ لُعْبَةً ثَبَّتَتْهُ وَخَدَعَ النَّاسَ كُلَّهُمْ، فَبَعْدَ أَنِ اسْتَلَمَ الحُكْمَ قَامَ بِحَرْبٍ وَهْمِيَّةٍ عَلَى أَعْدَاءِ المَدِينَةِ الَّذِينَ كَانُوا قَدِ اغْتَصَبُوا قِطْعَةً مِنْهَا؛ كَانَتْ لُعْبَةً بِمُنْتَهَى الذَّكَاءِ وَالخُبْثِ حَيْثُ اسْتَعَادَ قِسْماً مِنَ الأَرْضِ الَّتِي لَا يَطْمَحُ العَدُوُّ بِهَا وَبَاعَ الجُزْءَ الآخَرَ، وَهَذَا لَمْ يُعْلَمْ لَدَى عَامَّةِ الشَّعْبِ، فَهَذِهِ الخُطَّةُ جَعَلَتْ مِنْهُ البَطَلَ المَنْشُودَ وَأَصْبَحَ قَائِداً يُمَجِّدُهُ النَّاسُ. وَمِنْ حِينِهَا جَعَلَ أَفْرَادَ طَائِفَتِهِ بِكُلِّ المَرَافِقِ وَسَلَّمَهُمُ الجَيْشَ وَالأَمْوَالَ، وَكُلُّ شَخْصٍ يُعَارِضُهُ أَوْ يُفَكِّرُ حَتَّى بِمُعَارَضَتِهِ يَقُومُ بِقَتْلِهِ أَوْ بِتَغْيِيبِهِ بِالسُّجُونِ. وَالمُثِيرُ لِلسُّخْرِيَّةِ الحَمْقَاءِ أَنَّهُ قَذَفَ بِالسِّجْنِ بَطَلاً قَاوَمَ الأَعْدَاءَ وَقَتَلَ مِنْهُمُ الكَثِيرَ فَقَدْ أُسِرَ مِنْ قِبَلِهِمْ لَكِنَّ اللهَ كَتَبَ لَهُ النَّجَاةَ، وَعِنْدَمَا عَادَ مِنْ أَسْرِهِ قُذِفَ بِهِ فِي السِّجْنِ، وَرَغْمَ هَذَا لَمْ يَدْرِ بِهِ أَحَدٌ فَكُلُّ شَيْءٍ قَدْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ، وَحَتَّى إِنْ عَلِمَ بِأَمْرِهِ أَحَدٌ مَا فَلَنْ يَتَجَرَّأَ عَلَى قَوْلِ أَيِّ كَلِمَةٍ.

رَغْمَ كُلِّ هَذِهِ السَّطْوَةِ الَّتِي عَمِلَ بِهَا جَعْفَرٌ إِلَّا أَنَّ أَصْحَابَ العَقْلِ وَالعِلْمِ لَمْ يَرْكَنُوا لِهَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ وَكَيْفِيَّةِ اسْتِحْوَاذِهِ عَلَى السُّلْطَةِ قَهْراً وَتَسَلُّطاً عَلَى رِقَابِ الضُّعَفَاءِ، فَانْبَرَى عَلِيٌّ يُحَرِّضُ الشَّعْبَ

عَلَى النُّهُوضِ وَبَدَأَ يُعَلِّمُهُمْ مَنْ هُوَ جَعْفَرٌ وَكَيْفَ اسْتَبَدَّ بِالحُكْمِ وَاغْتَصَبَ السُّلْطَةَ وَالحُقُوقَ، فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ ثَوْرَةٍ؛ ثَوْرَةٍ صَادِقَةٍ يَقُودُهَا أَشْخَاصٌ كَأَمْثَالِ عَلِيٍّ وَالهَدَفُ تَخْلِيصُ هَذِهِ البِلَادِ مِنْ جَعْفَرٍ وَدِينِهِ المَكْذُوبِ، فَحَمَلَتِ اسْمَ «أُخُوَّةِ الإِسْلَامِ»، فَكُلُّ مُثَقَّفٍ انْضَمَّ لَهَا، وَقَدِ انْضَوَتْ عَلَى الأَشْرَافِ وَالعُلَمَاءِ وَحَفَظَةِ القُرْآنِ، وَلَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى هَؤُلَاءِ فَقَطْ بَلْ مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ النَّاسِ وَمُسْتَوَيَاتِهِمُ المَعْرِفِيَّةِ، وَأَغْلَبُ الَّذِينَ ثَارُوا مِنْ أَبْنَاءِ الطَّبَقَةِ المَسْحُوقَةِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي مُورِسَ عَلَيْهَا الجُوعُ وَالحِصَارُ الفِكْرِيُّ.

وَكَانَ يَرْأَسُ هَذِهِ الثَّوْرَةَ عَلِيٌّ مِمَّا جَعَلَ جَعْفَراً يَسْتَشِيطُ غَضَباً وَيَأْمُرُ بِالقَتْلِ وَالتَّعْذِيبِ لِكُلِّ شَخْصٍ يُسَاعِدُ هَذِهِ الثَّوْرَةَ أَوْ حَتَّى يَنْتَمِي إِلَيْهَا فِكْرِيّاً، وَرَغْمَ كُلِّ هَذِهِ القَسْوَةِ وَالوَحْشِيَّةِ الَّتِي مُورِسَتْ بِحَقِّ الثَّوْرَةِ إِلَّا أَنَّهَا انْتَشَرَتْ بِجَمِيعِ أَرْجَاءَ البِلَادِ انْتِشَارَ النَّارِ فِي الهَشِيمِ، لَكِنَّ أَفْرَادَ الثَّوْرَةِ كَانُوا ضُعَفَاءَ لَا يَمْلِكُونَ السِّلَاحَ، وَجَعْفَرٌ اسْتَخْدَمَ القُوَّةَ المُفْرِطَةَ وَبِيَدِهِ الجَيْشُ وَالسِّلَاحُ. صَدْمَةٌ قَوِيَّةٌ يَنَالُهَا كُلُّ مَنْ عَاشَ بِزَمَنِ تِلْكَ الثَّوْرَةِ، كَيْفَ لِلْجَيْشِ أَنْ يَكُونَ أَدَاةً بِيَدِ شَخْصٍ وَاحِدٍ يُحَرِّكُهُ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَسْتَخْدِمُهُ لِقَتْلِ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِمْ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَبْنَاءَ الجَيْشِ جُلُّهُمْ مِمَّنْ لَا يَنْتَمُونَ إِلَى طَائِفَةِ جَعْفَرٍ؟

وَتَرْجِعُ هَذِهِ التَّبَعِيَّةُ المُفْرِطَةُ -وَلَوْ قُلْنَا التَّأْلِيهَ لَأَصَبْنَا جُزْءاً كَبِيراً مِنَ الحَقِيقَةِ- إِلَى اتِّبَاعِ جَعْفَرٍ وَأَعْوَانِهِ سِيَاسَةَ «الإِبْعَادِ وَالاقْتِرَابِ اللاإِرَادِيِّ»، وَيَعْنِي الإِبْعَادُ جَعْلَ الفَرْدِ يَبْتَعِدُ كُلَّ البُعْدِ عَنْ دِينِهِ فَيُصْبِحُ تَائِهاً لَاهِثاً وَرَاءَ المَلَذَّاتِ لَا أَكْثَرَ، فَكُلُّ فَرْدٍ فِي الجَيْشِ لَا يُسْمَحُ لَهُ بِالصَّلَاةِ وَلَا الصِّيَامِ وَيُعَاقَبُ كُلُّ شَخْصٍ يَتَّبِعُ دِينَهُ، وَبِهَذَا يُصْبِحُ الفَرْدُ بَعِيداً كُلَّ البُعْدِ عَنْ دِينِهِ وَرَادِعِهِ الدِّينِيِّ الَّذِي يَمْلِكُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَلَا يُحَاسَبُ كُلُّ فَرْدٍ يَسُبُّ الدِّينَ أَوِ الذَّاتَ الإِلَهِيَّةَ وَالعِيَاذُ بِاللهِ، وَبِهَذَا يُصْبِحُ الفَرْدُ مُنْقَعِراً كَأَنَّ رِيحَ عَادٍ قَدْ حَلَّتْ عَلَى رَأْسِهِ.

وَتِلْقَائِيّاً تُطَبَّقُ سِيَاسَةُ الاقْتِرَابِ اللاإِرَادِيِّ، فَيُصْبِحُ الفَرْدُ يَلْهَثُ وَرَاءَ أَيِّ جَمَاعَةٍ تُؤْوِيهِ، وَهَذِهِ الجَمَاعَةُ هِيَ جَمَاعَةُ جَعْفَرٍ، فَيَنْسَلِخُ الفَرْدُ مِنْ دِينِهِ انْسِلَاخاً وَيَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُ الشَّيْطَانِيَّةَ، فَلَا صَلَاةَ تَرْدَعُ وَلَا قَلْبَ يَخْشَعُ، فَيُصْبِحُ الجَيْشُ مُسَيَّراً وَرَاءَ شَخْصٍ وَاحِدٍ كَأَنَّهُ بَيَادِقُ شِطْرَنْجٍ بِيَدِ شَيْطَانٍ يُسَيِّرُهُ كَيْفَ يَشَاءُ. وَكَانَتْ هَذِهِ الخُطَّةُ نَاجِحَةً بِسَبَبِ تَدَنِّي المَعْرِفَةِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ، وَكَانَ الجَيْشُ مَلْجَأً كُلِّ شَاذٍّ مِنْ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ.

وَلَكِنْ رَغْمَ كُلِّ هَذِهِ السِّيَاسَاتِ الحَقِيرَةِ بَرَزَ رِجَالٌ أَكْفِيَاءُ دَافَعُوا عَنِ الدِّينِ وَحَاوَلُوا حَتَّى الرَّمَقِ الأَخِيرِ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمُ الشَّيْخُ الجَلِيلُ مُحَمَّدٌ الَّذِي كَانَ صَاحِبَ عَلِيٍّ وَمَخْبَأَ سِرِّهِ، مِمَّا جَعَلَ مِنْهُ هَدَفاً يَطْمَحُ إِلَيْهِ جَعْفَرٌ وَيَرْكُضُ وَرَاءَهُ لِأَنَّ الشَّيْخَ كَانَ يَمْلِكُ مِنَ العِلْمِ الكَثِيرَ وَيُعَلِّمُ النَّاسَ أُمُورَ دِينِهِمْ وَيُوَضِّحُ لَهُمُ الدِّينَ المَزْعُومَ الَّذِي ادَّعَى جَعْفَرٌ أَنَّهُ ذَاتُهُ الدِّينُ الإِسْلَامِيُّ. وَبَقِيَ الشَّيْخُ بِنِضَالِهِ إِلَى أَنْ حَاصَرَهُ رِجَالُ جَعْفَرٍ بِمَغَارَةٍ وَقَتَلُوهُ، وَلَكِنَّ الثَّوْرَةَ لَمْ تَنْحَنِ، وَبَدَأَتِ الضَّرَبَاتُ تَظْهَرُ بِقُوَّاتِ جَعْفَرٍ، فَعَلِيٌّ يُخَطِّطُ وَيُشِيرُ عَلَى جُنُودِ الثَّوْرَةِ كَيْفِيَّةَ التَّصَرُّفِ، فَكَانَتِ الضَّرَبَاتُ تَأْتِي مِنَ الدَّاخِلِ، مِنْ دَاخِلِ الجَيْشِ الَّذِي قَمَعَ الثَّوْرَةَ الطَّاهِرَةَ.

فَكَانَتِ الضَّرْبَةُ الَّتِي أَوْجَعَتْهُ حَيْثُ قَامَ رَجُلٌ كَانَ مِنْ ضِمْنِ الجَيْشِ، عُرِفَ بِحُبِّهِ لِأَرْضِهِ وَبَسَالَتِهِ فِي الحَرْبِ ضِدَّ الأَعْدَاءِ وَكَانَتْ لَهُ رُتْبَةٌ عَالِيَةٌ فِيهِ، فَقَامَ بِجَمْعِ الكَثِيرِ مِنْ رِجَالِ جَعْفَرٍ بِمَكَانِ ثُكْنَتِهِ العَسْكَرِيَّةِ مَعَ الِاتِّفَاقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَفْرَادٍ مِنَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ عَلِيٌّ لِلاسْتِيلَاءِ عَلَى الثُّكْنَةِ وَقَامَ بِقَتْلِهِمْ جَمِيعاً. عِنْدَ هَذِهِ الوَاقِعَةِ كَادَ الأَمْرُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ يَدِ جَعْفَرٍ مِمَّا جَعَلَهُ يَفْقِدُ عَقْلَهُ تَمَاماً وَيَأْمُرُ بِالقَتْلِ العَشْوَائِيِّ؛ حَتَّى الأَطْفَالُ وَالنِّسَاءُ لَمْ تَسْلَمْ مِنْ بَطْشِهِ وَإِرْهَابِهِ، فَجَمَعَ كُلَّ قُوَّاتِهِ وَحَاصَرَ الثُّكْنَةَ العَسْكَرِيَّةَ الَّتِي احْتَمَى بِهَا الرَّجُلُ الَّذِي قَامَ

بِهَذَا الفِعْلِ البُطُولِيّ، وَأَمْطَرَهَا بِوَابِلٍ مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الأَسْلِحَةِ المُمْكِنَةِ، فَاسْتُشْهِدَ البَطَلُ الَّذِي دَافَعَ عَنْ دِينِهِ وَمَنْ مَعَهُ.

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا الأَمْرِ، بَلْ ذَهَبَ إِلَى بَيْتِهِ وَهَدَمَهُ فَوْقَ رَأْسِ زَوْجَتِهِ وَأَطْفَالِهِ. وَرَغْمَ هَذِهِ القَسْوَةِ إِلَّا أَنَّ عَلِيّاً اسْتَمَرَّ مَعَ رِفَاقِهِ بِالثَّوْرَةِ حَتَّى كَانَتِ الضَّرْبَةُ النِّهَائِيَّةُ، الَّتِي سَوْفَ تَبْقَى خَالِدَةً بَيْنَ النُّفُوسِ، بَيْنَ الأَوْرَاقِ، بَيْنَ عُيُونِ الأَطْفَالِ، كَأَبْشَعِ جَرِيمَةٍ وَقَعَتْ بِهَذَا العَصْرِ؛ فَهَدْمُ المَنَازِلِ عَلَى رُؤُوسِ سَاكِنِيهَا وَقَتْلُ الأَطْفَالِ وَالشُّيُوخِ وَالنِّسَاءِ، حَتَّى الحَيَوَانَاتُ لَمْ تَسْلَمْ، اسْتُخْدِمَ كُلُّ الأَسْلِحَةِ بِمَا فِيهَا السَّكَاكِينُ بِذَبْحِ الأَطْفَالِ وَالنِّسَاءِ، اسْتَمَرَّ القَصْفُ طيلةَ أَيَّامٍ مُسْتَمِرَّةٍ وَمِنْ بَعْدِهَا زَحَفَ جُنُودُهُ لِيُجْهِزُوا عَلَى مَنْ بَقِيَ حَيّاً، وَمِنْ أَصْعَبِ الأُمُورِ الَّتِي وَرَدَتْ عَلَى الإِطْلَاقِ، قِصَّةٌ سَوْفَ تَبْقَى تُلَطِّخُ وَجْهَ كُلِّ مَنْ لَمْ يَنْهَضْ وَيَبْذُلْ دَمَهُ وَرُوحَهُ فِدَاءً لِهَذِهِ الثَّوْرَةِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَهِيَ قِيَامُ أَحَدِ الجُنُودِ بِجَرْحِ رَقَبَةِ طِفْلَةٍ لَا تَتَجَاوَزُ الخَمْسَ سِنِينَ، وَلِشِدَّةِ بَرَاءَةِ تِلْكَ الطِّفْلَةِ قَالَتْ لِلْجُنْدِيِّ الَّذِي يَذْبَحُهَا بِبَرَاءَةِ الأَطْفَالِ (عَمُّو أَنْتَ تُوجِعُنِي)، فَكَأَنَّ مُعْجِزَةً حَلَّتْ مِنَ اللهِ بِهَا فَلَمْ تَشْعُرْ بِالمَوْتِ، بَلْ اسْتَمَرَّتْ بِبَرَاءَتِهَا تَنْظُرُ إِلَى عَيْنَيْهِ وَاسْتَمَرَّ هُوَ حَتَّى فَصَلَ رَأْسَهَا عَنْ جَسَدِهَا. أَيَّ ذَنْبٍ ارْتَكَبَتْ أَيُّهَا المَلَاكُ حَتَّى تُذْبَحِي؟ الشَّيْطَانُ ذَاتُهُ غَادَرَ المَكَانَ لِأَنَّهُ عَجَزَ عَنِ التَّفْكِيرِ بِقَسْوَةِ هَذَا المَخْلُوقِ النَّتِنِ. الكَثِيرُ الكَثِيرُ مِنَ القِصَصِ المُرْعِبَةِ الَّتِي حَدَثَتْ وَغَيَّبَهَا الزَّمَنُ بَيْنَ جُدْرَانِ البُيُوتِ وَتَحْتَ الخُوَذِ الَّتِي اعْتَلَتْ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ.

وَبِهَذِهِ المَجْزَرَةِ الَّتِي رَاحَ ضَحِيَّتَهَا الآلَافُ كُسِرَ ظَهْرُ الثَّوْرَةِ، وَلَمْ يُكْسَرْ ظَهْرُهَا مَخَافَةَ بَذْلِ الأَرْوَاحِ وَالدِّمَاءِ مِنَ الأَبْطَالِ، بَلْ مَخَافَةَ المَجَازِرِ الَّتِي لَنْ يَتَوَقَّفَ عَنْهَا السَّفَّاحُ حَتَّى وَإِنْ قَتَلَ كُلَّ إِنْسَانٍ فِي الدَّوْلَةِ الَّتِي اغْتَصَبَهَا، وَعَبَّرْتُ عَنْهَا بِالمَدِينَةِ لِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الدَّوْلَةِ

الَّتِي خَذَلَتْهَا وَجَعَلَتْهَا تُعَانِي وَيْلَاتِ السَّفَّاحِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الرَّحْمَةَ أَبَداً وَتَرَكَتْهَا وَحِيدَةً تُصَارِعُ المَوْتَ، وَحِيدَةً تُعَانِي مِنَ الوَيْلَاتِ الَّتِي صَنَعَتْهَا الشَّيَاطِينُ بِهَا. وَبِهَذَا انْتَهَتْ آخِرُ أَيَّامِ الثَّوْرَةِ عَلَى الظُّلْمِ وَاخْتَبَأَتْ دَاخِلَ الصُّدُورِ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَمُتْ، وَمِنَ المُحَالِ أَنْ يَمُوتَ الحَقُّ. أَمَّا عَلِيٌّ وَمَنْ تَبِعَهُ فَقَدِ التَجَأَ إِلَى دَوْلَةٍ قَرِيبَةٍ كَانَ عَلَى رَأْسِهَا حَاكِمٌ مُسْلِمٌ يَعْرِفُ جَعْفَرَ وَنَتَانَتَهُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِمَقْدُورِهِ فِعْلُ أَيِّ شَيْءٍ.

لَمْ تَكُنْ نِهَايَةُ الثَّوْرَةِ إِلَّا بِدَايَةً لِمَرْحَلَةٍ سَوْفَ تَكُونُ أَشَدَّ وَقْعاً عَلَى النُّفُوسِ وَإِنْ لَمْ تَكُنِ القَسْوَةُ لُغَةً لَهَا، وَهِيَ مَرْحَلَةُ التَّلْمِيعِ وَالحُبِّ القَسْرِيِّ وَإِظْهَارِ السَّفَّاحِ وَالمُجْرِمِينَ مَعَهُ عَلَى أَنَّهُمْ أَبْطَالٌ، فَبَدَأَتْ حَمْلَةٌ فِكْرِيَّةٌ سَوْفَ تَغْزُو كُلَّ عَقْلٍ بِالدَّوْلَةِ وَتَجْعَلُ مِنْ جَعْفَرٍ بَطَلاً يُمَجِّدُهُ النَّاسُ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ. فَكَانَ قَدْ وَضَعَ شِعَاراً بِهِ اسْمُهُ يُرَدَّدُ كُلَّ صَبَاحٍ بِكُلِّ مَقَاسِمِ الدَّوْلَةِ وَخُصُوصاً المَدَارِسَ؛ فَالأَطْفَالُ لَا يَعْرِفُونَ عَنْهُ أَيَّ شَيْءٍ وَهُمْ مِثْلُ الكُتُبِ البَيْضَاءِ وَأَيُّ قَلَمٍ يَكْتُبُ بِدَاخِلِهَا، وَإِنْ كُرِّرَ الأَمْرُ لآلَافِ المَرَّاتِ سَوْفَ يَكُونُ الحُبُّ قَسْرِيّاً، فَالذَّاتُ البَشَرِيَّةُ تَأْلَفُ المَأْلُوفَ المُتَكَرِّرَ، فَكَيْفَ إِنْ أَصْبَحَ كَوَجْبَةِ الإِفْطَارِ؟ بَلْ مِنَ المُمْكِنِ أَلَّا تَتَنَاوَلَ وَجْبَةَ الإِفْطَارِ وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ تَنَاوُلِ الِاسْمِ، وَبِهَذَا يَكُونُ الحُبُّ القَسْرِيُّ.

وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى بَدَأَ التَّلْمِيعُ لِأَفْرَادِ زُمْرَتِهِ وَصُوَرِهِمْ، فَكُلُّ شَخْصٍ مِنْهُمْ يُجِيدُ القِرَاءَةَ فَقَطْ هُوَ مُقَدَّسٌ، وَالتَّغْيِيبُ لِكُلِّ عَقْلٍ يُفَكِّرُ فِي الحَيَاةِ إِمَّا بِالسِّجْنِ أَوْ القَتْلِ، فَكَانَتِ الأَسْمَاءُ وَالأَعْلَامُ مِنَ الشُّعَرَاءِ وَالمُفَكِّرِينَ إِنَّمَا هُمْ مِنْ زُمْرَتِهِ فَقَطْ، أَمَّا أَصْحَابُ العُقُولِ مِنَ الشَّعْبِ المَقْهُورِ فَكَانَ العَقْلُ عِنْدَهُمْ مُصِيبَةً؛ إِمَّا يَجِبُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا أَوِ الهَرَبُ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، فَكَانَتِ الدَّوْلَةُ مُصَدِّرَةً لِلْعُقُولِ إِلَى جَمِيعِ

أَنْحَاءِ العَالَمِ، وَكُلُّ مَا نَرَاهُ فِي حَيَاتِنَا إِنَّمَا هُوَ امْتِدَادٌ لِاخْتِرَاعٍ أَوْ فِكْرٍ مِنَ العُقُولِ الَّتِي هَجَرَتِ الدَّوْلَةَ بِسَبَبِ الظُّلْمِ الَّذِي مَارَسَهُ جَعْفَرٌ.

وَمِنَ الأُمُورِ الَّتِي سَادَتِ انْتِشَارُ العُيُونِ وَالآذَانِ حَتَّى انْتَشَرَتِ المَقُولَةُ الشَّهِيرَةُ الَّتِي يَتَدَاوَلُهَا الكِبَارُ: "إِنَّ الجُدْرَانَ لَدَيْهَا آذَانٌ"، فَلَا يُسْمَحُ التَّكَلُّمُ بِأَيِّ شَيْءٍ، وَبِهَذَا بَدَأَ التَّكْمِيمُ القَهْرِيُّ فَمَا مِنْ أَحَدٍ يَتَجَرَّأُ بِتَلَفُّظِ الحَقِيقَةِ الكَامِنَةِ دَاخِلَ الصُّدُورِ المُكَبَّلَةِ بِالحَدِيدِ، حَتَّى لَا يُمْكِنُ لِلرَّجُلِ الحَدِيثُ وَإِنْ كَانَ بِحِضْنِ زَوْجَتِهِ، وَمَعَ مُرُورِ الأَيَّامِ أَصْبَحَ الحُبُّ وَالتَّكْمِيمُ القَهْرِيَّانِ مِنَ الطَّبَائِعِ الَّتِي تَحْوِيهَا النُّفُوسُ البَشَرِيَّةُ حَتَّى انْطَلَقَ الشِّعَارُ: "الفِدَاءُ بِالرُّوحِ وَالدَّمِ لِلْقَائِدِ". أَيَّ فِدَاءٍ تَطْلُبُهُ أَيُّهَا النَّجِسُ؟ وَلَا يُمْكِنُ تَشْبِيهُ هَذَا الكَائِنِ بِأَيِّ مَخْلُوقٍ كَانَ عَدَا الخِنْزِيرَ وَالشَّيْطَانَ، وَفِيمَا عَدَا ذَلِكَ لَا يُمْكِنُ لِأَنَّنَا سَوْفَ نُسِيءُ لِلْحَيَوَانِ، وَلَكِنْ نَحْنُ لَسْنَا بِهَذَا الصَّدَدِ.

عِنْدَمَا تَتَكَرَّرُ الأُمُورُ وَإِنْ كَانَتْ سَلْبِيَّةً فَإِنَّ النَّفْسَ البَشَرِيَّةَ تَسْتَسِيغُهَا وَإِنْ كَانَ الأَمْرُ أُجَاجاً أَوْ عَلْقَماً، وَهَذَا مَا حَدَثَ فَالشَّعْبُ قَدْ أَلِفَ الظُّلْمَ وَتَجَرَّعَهُ تَجَرُّعَ الدَّوَاءِ، وَمِنَ المُثِيرِ لِلسُّخْرِيَّةِ أَنْ جَعَلَ اسْمَهُ خَالِداً حَتَّى وَإِنْ كَانَ مِنْ أَنْجَسِ الخَلَائِقِ وَأَنْتَنِهَا. عَنْ أَيِّ خُلُودٍ يُمْكِنُ التَّحَدُّثُ سِوَى عَنِ الخُلُودِ بِالجَحِيمِ وَمَزَابِلِ التَّارِيخِ؟ وَجَعَلَ اسْمَهُ يَتَرَدَّدُ بِكُلِّ الكُتُبِ المَدْرَسِيَّةِ، فَلَا يُلَامُ الشَّعْبُ عَلَى سُكُوتِهِ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، فَالاغْتِصَابُ الفِكْرِيُّ قَدْ حَلَّ عَلَى عُقُولِ الأَطْفَالِ وَالكِبَارِ، الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مِنْهُمْ. وَبِهَذَا ضَمِنَ جَعْفَرٌ لِنَفْسِهِ الحُكْمَ حَتَّى المَوْتِ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ الحُكْمَ لِذُرِّيَّتِهِ بَعْدَ نُفُوقِهِ، فَمِنْ عَلَاقَةِ الخِنْزِيرِ بِالأَتَانِ وُلِدَ لَهُ وَلَدٌ مِنْ مَنَارَ الَّتِي قَدْ تَزَوَّجَهَا بَعْدَ قَتْلِ زَوْجِهَا، وَهَذَا الوَلَدُ سَوْفَ يَجْمَعُ بَيْنَ غَبَاءِ الحِمَارِ وَنَتَانَةِ الخِنْزِيرِ، وَلَعَلَّنِي قَدْ ظَلَمْتُ الحِمَارَ بِهَذَا فَهُوَ أَذْكَى مِنْهُ؛ فَهُوَ لَا يُدَمِّرُ المَأْوَى وَلَا يُفْسِدُ الطَّعَامَ، وَأَنَا لَسْتُ بِهَذَا الصَّدَدِ وَلَكِنْ حَتَّى لَا أَظْلِمَ مَخْلُوقاً شَبَّهْتُهُ بِهِ.

أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ عَبَّاسٍ، وَكَانَ وَلَداً بِمُنْتَهَى الغَبَاءِ وَلَكِنَّهُ ابْنُ جَعْفَرٍ؛ أَيْ هُوَ ذَكِيٌّ وَإِنْ كَانَ غَبِيّاً وَسَوْفَ يَنَالُ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ فِي العِلْمِ وَإِنْ كَانَ لَا يَفْقَهُ بِأَيِّ شَيْءٍ. عَمِلَ جَعْفَرٌ عَلَى جَعْلِهِ زَعِيماً مِنْ بَعْدِهِ وَأَرْسَلَهُ لِلدِّرَاسَةِ بِأَرْقَى الجَامِعَاتِ وَالمَدَارِسِ، وَرَغْمَ هَذَا لَمْ يَكُنْ لِيُفْلِحَ، وَلَكِنَّ السُّلْطَةَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ فِي بَلَدِ الاسْتِبْدَادِ وَالتَّطْبِيلِ لِلْمُسْتَبِدِّ أَمْثَالِ جَعْفَرٍ. وَعَلَى مَا يَبْدُو أَنَّ النَّاسَ أَصْبَحَ السُّكُوتُ مِنْ تَكْوِينِهَا، وَرُبَّمَا الأَمْرُ عَائِدٌ إِلَى الخَوْفِ مِنْ تَكْرَارِ التَّجْرِبَةِ الأُولَى أَوْ أَنَّ السَّبَبَ عَائِدٌ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ مَا سَلَّطَ اللهُ عَلَى تِلْكَ الأُمَّةِ ذَلِكَ المُجْرِمَ هُوَ عَدَمُ العَمَلِ بِقَانُونِ اللهِ وَشَرِيعَتِهِ وَعَدَمُ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ وَعَدَمُ الامْتِثَالِ لِسُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي إِنْ قُلْتَ فِدَاءَهُ النَّفْسُ قَلَّتْ فِي سَبِيلِهِ.

تَدُورُ الأَيَّامُ دَوْرَتَهَا وَيَلْفِظُ جَعْفَرٌ آخِرَ أَنْفَاسِهِ النَّتِنَةِ وَيُدْفَنُ فِي القَرْيَةِ الَّتِي تَرَبَّى بِهَا بِالقُرْبِ مِنَ الجِبَالِ الغَرْبِيَّةِ، وَمِنَ الأُمُورِ الغَرِيبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْدُثُ لِقَبْرِهِ هُوَ خُرُوجُ رَائِحَةٍ نَتِنَةٍ مِنْ قَبْرِهِ رَغْمَ تَبْدِيلِ التُّرَابِ مِرَاراً وَتَكْرَاراً. وَكَانَ مَوْتُهُ حَدَثاً يَجِبُ اسْتِغْلَالُهُ، وَلَكِنَّ المُطَبِّلِينَ لِلظَّالِمِ أَخَذُوا ابْنَهُ وَجَعَلُوهُ زَعِيماً بَدَلَ وَالِدِهِ بِالرَّغْمِ مِنَ القَانُونِ الَّذِي لَا يَسْمَحُ بِذَلِكَ، وَرَغْمَ هَذَا أَصْبَحَ رَئِيساً لِلدَّوْلَةِ بَدَلَ وَالِدِهِ، وَكَأَنَّ الحُكْمَ خُلِقَ لِهَذِهِ السُّلَالَةِ!!؟.

عَمِلَ عَبَّاسٌ مِثْلَ وَالِدِهِ تَمَاماً فَقَمَعَ كُلَّ عَقْلٍ يُفَكِّرُ وَتَفَرَّدَ بِالسُّلْطَةِ. لَمْ يَكُنِ الظُّلْمُ يَوْماً لِيَدُومَ حَتَّى يَدُومَ ظُلْمُ هَذَا المُسْتَبِدِّ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ مُحَرِّكٍ وَإِنْ كَانَ المُحَرِّكُ وَلَداً صَغِيراً؛ فَلَيْسَ بِبَعِيدٍ عَنْ قَصْرِ رِئَاسَتِهِ قَامَ وَلَدٌ بِكِتَابَةِ عِبَارَةٍ عَلَى حَائِطِ مَدْرَسَتِهِ، لَعَلَّهَا كَانَتْ مَطْلَباً يَطْلُبُهُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَوْ كُلُّ مَخْلُوقٍ بِهَذِهِ الدُّنْيَا، فَلَمْ يُخْلَقِ الإِنْسَانُ عَبْداً إِلَّا للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا المَطْلَبُ هُوَ الحُرِّيَّةُ. أَمْرٌ بِمُنْتَهَى البَسَاطَةِ:

الحُرِّيَّةُ، أَجَلْ حُرِّيَّةُ الكَلَامِ، حُرِّيَّةُ التَّصَرُّفِ، وَلَمْ تُطْلَبِ الحُرِّيَّةُ إِلَّا ضِمْنَ أَوَامِرِ اللهِ. فَمَا كَانَ مِنْ أَتْبَاعِ المُجْرِمِ إِلَّا أَنْ قَبَضُوا عَلَى هَذَا الطِّفْلِ وَعَذَّبُوهُ بِشَكْلٍ وَحْشِيٍّ حَتَّى كَانَ شَهِيداً جَمِيلاً بِإِذْنِ اللهِ.

كَانَتْ شَهَادَةُ هَذَا الطِّفْلِ بِدَايَةً لِثَوْرَةٍ سَوْفَ تَكُونُ أَشَدَّ الثَّوْرَاتِ عَلَى مَرِّ الزَّمَنِ، وَعِنْدَمَا عَلِمَ النَّاسُ بِهَذَا الأَمْرِ ثَارَ كُلُّ رَجُلٍ سَوَاءٌ عَرَفَ الطِّفْلَ أَمْ لَمْ يَعْرِفْهُ، فَاحْتَذَى عَبَّاسٌ بِوَالِدِهِ فَقَتَلَ كُلَّ شَخْصٍ يَنْطِقُ بِالحُرِّيَّةِ وَأَمَرَ جَيْشَهُ بِالنُّزُولِ إِلَى السَّاحَاتِ وَمُمَارَسَةِ القَتْلِ وَالتَّعْذِيبِ بِحَقِّ كُلِّ إِنْسَانٍ ثَائِرٍ حَتَّى وَلَوْ كَانَ طِفْلاً، فَآلَةُ الإِجْرَامِ عَمْيَاءُ بِالظُّلْمِ، خَرْسَاءُ بِالقَهْرِ، صَمَّاءُ بِصَوْتِ المُجْرِمِ.

إِنَّ مَا يُمَيِّزُ هَذِهِ الثَّوْرَةَ هُوَ قِيَامُ جَمِيعِ النَّاسِ يَداً وَاحِدَةً وَبَذْلُهُمُ الأَرْوَاحَ وَالدِّمَاءَ رَخِيصَةً فِي سَبِيلِ الخَلَاصِ مِنْ هَذَا المُجْرِمِ. كَانَ عَلِيٌّ مِنَ السَّبَّاقِينَ بِهَذِهِ الثَّوْرَةِ وَإِنْ كَانَتِ المَصَائِبُ وَالسُّنُونَ قَدْ أَخَذَتْ نَصِيبَهَا مِنْهُ، وَكَانَ مِنْ أَوَّلِ الشُّهَدَاءِ بِهَذِهِ الثَّوْرَةِ. كَانَتِ البِدَايَةُ طَاهِرَةً لَا يَشُوبُهَا شَائِبٌ، فَالحَمِيَّةُ وَالغَيْرَةُ عَلَى الدِّينِ وَالعِرْضِ لَا تَزَالُ فِي نُفُوسِ البَشَرِ وَلَنْ تَزُولَ مِنْ نَفْسِ كُلِّ إِنْسَانٍ حُرٍّ وَلَوْ مُورِسَتْ بِحَقِّهِ جَمِيعُ أَصْنَافِ العَذَابِ.

اسْتَخْدَمَ عَبَّاسٌ كُلَّ مَا يَمْلِكُ فِي سَبِيلِ إِخْمَادِ الثَّوْرَةِ وَلَمْ يُوَفِّرْ سِلَاحاً مُتَاحاً وَارْتَكَبَ المَجَازِرَ وَذَبَحَ النِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ فِي البُيُوتِ وَحَرَقَ النَّاسَ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَرَغْمَ هَذَا انْتَصَرَتِ الثَّوْرَةُ وَكَادَ يُقْبَضُ عَلَيْهِ إِلَّا أَنَّهُ قَامَ بِفِعْلٍ تَعْجَزُ الشَّيَاطِينُ عَنْ فِعْلِهِ؛ حَيْثُ قَامَ بِإِدْخَالِ كُلِّ كَارِهٍ لِلْمُسْلِمِينَ وَكُلِّ طَامِعٍ بِخَيْرَاتِ البِلَادِ، فَاجْتَمَعَتِ الشَّيَاطِينُ عَلَى إِخْمَادِ الثَّوْرَةِ وَهَذَا لَيْسَ بِالغَرِيبِ، وَلَكِنَّ الغَرِيبَ هُوَ انْسِلَاخُ أَبْنَاءِ جِلْدَةِ المُسْلِمِينَ وَالمُحَارَبَةُ مَعَهُ، وَبِهَذِهِ الثَّوْرَةِ تَمَيَّزَ الخَبِيثُ مِنَ الطَّيِّبِ.

لَقَدِ اجْتَمَعَتْ كُلُّ الأُمَمِ عَلَى ذَلِكَ الشَّعْبِ وَلَمْ يُوَفِّرُوا بِقَتْلِهِ أَيَّ وَسِيلَةٍ أُتِيحَتْ لَهُمْ، وَرَغْمَ هَذَا بَرَزَ أَبْطَالٌ شَأْنُهُمْ كَشَأْنِ عَلِيٍّ وَكُلِّ مَنْ شَارَكَ بِهَذِهِ الثَّوْرَةِ إِنَّمَا هُوَ عَلِيٌّ، حَتَّى النِّسَاءُ كَانَ لَهُنَّ دَوْرٌ بِهَا فَحَارَبْنَ وَدَافَعْنَ عَنْ أَعْرَاضِهِنَّ وَأَبْنَائِهِنَّ دِفَاعَ أَشَدِّ الرِّجَالِ. لَقَدْ كَانَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ بِتِلْكَ الثَّوْرَةِ نَصِيبٌ مِنَ العَطَاءِ فَلَمْ يَبْقَ إِنْسَانٌ إِلَّا وَقَدَّمَ الغَالِيَ وَالنَّفِيسَ فِدَاءً لَهَا وَكُلٌّ عَلَى حَسَبِ طَاقَتِهِ وَاسْتِطَاعَتِهِ. وَلَا يَزَالُ العَطَاءُ مُسْتَمِرّاً حَتَّى النَّصْرِ فَالثَّائِرُ لَا يَخْسَرُ أَبَداً؛ فَإِنْ مَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ وَإِنْ عَاشَ فَهُوَ مُنْتَصِرٌ، فَهَنِيئاً لِكُلِّ مَنْ قَدَّمَ بِهَذِهِ الثَّوْرَةِ وَسُحْقاً لِكُلِّ مَنْ خَذَلَهَا، وَسَوْفَ يَبْقَى الزَّيْتُونُ يُنْجِبُ أَبْطَالاً وَمُحَالٌ أَنْ يَنْتَهِيَ الزَّيْتُونُ.

لِلْكَاتِبِ: إِبْرَاهِيمُ الصَّعْبُ